مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

الاستغراق

د. مسعود عبدالله الوازني

لقد اخترنا أن نتعامل مع دلالة هذا اللفظ بعيداً عن الطريقة المعجمية التي تنحو بنا إلى استعراض الكلمة في مبانيها المختلفة وإن كنا لم نهمل ما اختلف مبناه واتحد معناه كما هو الحال في دلالة لفظ الاغتراق على معنى الاستيعاب الذي يتفق في دلالته مع لفظ الاستغراق وينحو نحوه ومن ذلك قول قيس بن الخطيم:

تغترق الطرف وهي لاهية كأنما شف وجهها نُزُفُ[1]

أي تستغرق عيوب الناظرين إليها لحسنها وهي غير محتفلة ولا عامدة لذلك ومنه أيضاً قولهم في البعير «اغترق التصدير واستغرقه»[2] إذا أجفر جنباه وضخم بطنه فاستوعب الحزام حتى ضاق عنه.

والذي يبدو لنا أن لفظ الاغتراق لم يتم التوسع فيه بالقدر الذي نرى عليه لفظ الاستغراق وهذا في نظري لا يعني انحسار الأول أو تلاشيه من ميدان الاستعمال والتواصل وإنما سيبقى للاغتراق بعده الدلالي فيما وضع له إلى جانب الاستعانة به في شرح مدلول الاستغراق إن اقتضى الأمر ذلك أو العكس.

---

(1) كأنما شف وجهها نُزُف: يصف الشاعر المرأة برقة المحاسن حتى كأن دمها ودم وجهها نزف. وفي نظره أن المرأة أحسن ما تكون غب نفاسها لأنه قد ذهب تهيج دم وجهها فصارت رقيقة المحاسن، انظر في هذا لسان العرب مادة اغترق.

(2) انظر مادة اغترق واستغرق في كل من لسان العرب والقاموس المحيط.

وتأكيداً لما سبق فإن لفظ الاستغراق قد تم التوسع فيه حقاً فدخل التعبير به لغة واصطلاحاً مجالات واسعة ومعارف متعددة، وأصبح حيثما ورد في الاصطلاح يعني استيفاء الشيء بتمام أجزائه وأفراده وإن كان هذا المعنى لا يبعد عن الدلالة اللغوية التي تعني الاستيعاب والإحاطة والشمول التي وضع لها اللفظ منذ البداية وهذا الرأي له ما يبرره إذا علمنا «أن اللفظ إذا احتمل أكثر من معنى من غير تضاد يحمل على الجميع»[3] ويعزز هذا الرأي أيضاً تعبير الفقهاء عن النوم الثقيل الذي ينقض الوضوء بالاستغراق وكذلك في استغراق الذمة في الأموال وبه جاء تعبير محمد عزة دروزة عند حديثه عن المسلمين الذي ثبتهم الله في غزوة بدر وشملتهم روحانيته، واستغرقوا حتى رأوا الملائكة تقاتل معهم وأخذوا يتحدثون بذلك وصبروا واستماتوا حتى تم لهم النصر[4].

فإذا انتقلنا إلى بيئة التصوف نجد الصوفية هم أكثر استعمالاً لهذا اللفظ وتعبيراً به عن حالات الوجد التي تعتري الصوفي حتى أنهم يجعلون لفظ الاستغراق هو مفتاح باب الوصول إلى الفناء في الله بعد قطع علائق النفس التي تفضي إلى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكره تعالى حتى يصير القلب مستغرقاً بالكلية بذكر الله[5] من غير أن يلتفت قلب الذاكر إلى الذكر في أثناء الذكر ولا إلى القلب[6].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما نجد مصطلح الاستغراق قد جرى التعبير به عند النحاة والبلاغيين والمناطق والأصوليين وعلماء النفس وإن أول تلك الاستعمالات ما نراه في إطلاق الاستغراق على أل الجنسية التي تفيد

---

(3) انظر في هذا الجصاص الرازي. أحكام القرآن 1/ 92 وهو يرى أن الاسم الموضوع له معتبر وإن ألحقت به في الشرع معان أخر لا يثبت حكم الاسم في الشرع إلا بوجودها.

(4) محمد دروزة. سيرة الرسول ﷺ 2/ 328. ط/ د. ت المكتبة العربية، بيروت.

(5) انظر الغزالي. المنقذ من الضلال ط 8/ 1974 دار الكتب الحديثة، القاهرة ص 137 وكذلك إحياء علوم الدين 2/ 2 ط / 1982 دار المعرفة. بيروت.
والدكتور عبد المنعم الحنفي. معجم مصطلحات الصوفية ط 1/ 1980 م. دار المسيرة. بيروت.

(6) الدكتور جميل صليبا. المعجم الفلسفي ط/ 1982 دار الكتاب اللبناني بيروت. مادة استغراق.

التناول على سبيل الشمول والإحاطة[7]، ومن أقسامها بحسب ما ورد في الكليات «جنسي وفردي وعرفي»[8] واستغراق الجمع في هذا المجال كاستغراق المفرد[*] من حيث الشمول. وحملوا الاستغراق على الحقيقة إذا كانت الإشارة فيه إلى كل الأفراد الذين يتناولهم اللفظ بحسب اللغة بمعونة قرينة نحو عالم الغيب والشهادة أي كل غائب وشاهد أو بمعونة لفظية نحو ﴿**إن الإنسان لفي خسر**﴾ أي كل إنسان بدليل الاستثناء بعده. وتستعمل (أل الجنسية) للاستغراق العرفي إذا كانت مقيدة نحو جمع الأمير التجار والمقصود تجار بلده لا تجار العالم. وألحقوا بأل ألفاظاً رأوها تدل على الاستغراق منها لفظ كل الذي يفيد استغراق أفراد المضاف إليه المنكر مثل ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ وكذلك الجمع المحلى بالألف واللام نحو «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» والمعرف هنا بلام الاستغراق ونحوه عام ومعرفة وقد جعل منهما قسيماً للآخر وذلك لما بينهما من تداخل وأما التغاير فهو بالاعتبار فقط.

وما دمنا قد أشرنا إلى الاستغراق أنه عام فإن هذه المسلمة تقودنا إلى آراء الأصوليين في مسألة العموم هذه التي يرى فيها الشافعية وبعض الأحناف أن العام لفظ يستغرق جميع ما يصلح له بوضع واحد وأما عامتهم فيرى أنه يكفي في العموم انتظام جمع من المسميات كما صرح به فخر الإسلام وغيره، لأن الاستغراق أشمل من العموم[9].

---

(7) عباس حسن. النحو الوافي 1/ 426. ط 5/ د. ت. دار المعارف بمصر.

(8) الكفوي. الكليات. القسم الأول ص 155. ط 2/ 1981. إحياء التراث العربي. دمشق.

(*) ومن أمثلة هذا النوع من الاستغراق ﴿**فما لنا من شافعين**﴾ الشعراء 100 أي ما لنا من شافع.

(9) انظر في هذا البدخشي والإسنوي في شرحهما. مناهج العقول ونهاية السول، لمنهاج الوصول في علم الأصول تأليف القاضي البيضاوي ط 1/ 1984 دار الكتب العلمية بيروت. 2/ 78 و 76، والآمدي. الإحكام في أصول الأحكام 2/ 217 وما بعدها. ط 2/ 1986 دار الكتاب العربي. بيروت.

د. ميشال عاصي والدكتور إميل بديع يعقوب. المعجم المفصل في اللغة المجلد الأول ص 94 ط 1/ 1987 م دار العلم للملايين.

الموسوعة الفقهية. ط 1/ 1984 م مطبعة الموسوعة الفقهية. الكويت. د. جميل صليبا. المعجم الفلسفي ط 1/ 1982 م دار الكتاب اللبناني، بيروت.

أما الاستغراق في القضايا المنطقية فهو يتجه أساساً إلى التعلق بكل الأفراد الذين يدل عليهم اللفظ أو الحد المعبر عنه بالموضوع والمحمول وانتهى المناطقة في ذلك إلى صورة إجمالية تنص على استغراق القضية الكلية الموجبة لموضوعها فقط في حين تستغرق القضية الكلية السالبة كلاً من الموضوع والمحمول. ولا تستغرق الجزئية الموجبة لأي منهما لعدم التحديد في ذلك، وتستغرق الجزئية السالبة المحمول دون الموضوع.

فإذا تركنا المنطق الصوري واتجهنا إلى المنطق الرياضي نجد أن القضية الموجهة (الكل كلية يكون فيها الموضوع والمحمول مستغرقين) مثل «كل مثلث هو كل ذي ثلاثة أضلاع» أي كل ع هي كل ح. وبالنظر إلى الحساب الرياضي نجد أن حساب الأصناف يقوم على خمسة عشر مبدأ منها مبدأ الاستغراق ورمزوا له بالآتي:

(أ + ب) حـ = أحـ + ب حـ.

م + حـ = (أ + حـ) (ب + حـ).

والقسم الأول من هذا المبدأ الأخير يعبر عما يماثل خواص الأعداد العادية. والقسم الثاني يوجد تفرقة لها معناها بين هذا الجبر «الجبر المنطقي» وبين الجبر العادي (الكمي)[10].

ولا يخلو أيضاً علم النفس من مصطلح الاستغراق الذي نراه يستخدم في ثلاثة معان تقنية مميزة وتتمثل في مجال البصر للدلالة على توجيه العينين أو العين الواحدة وتركيز البؤرة صوب شيء أو نقطة بحيث تقع الصورة على الجوبة المركزية. وفي مجال التعلم لوصف العملية التي يتم بواسطتها ترسيخ شيء في الذاكرة أو تكوين عادة حركية عبر التكرار. وفي مدارس التحليل النفسي لوصف التعلق بمرحلة مبكرة من مراحل النمو... أو هو تعلق بشيء يجعل من الصعب تكوين اهتمامات جديدة أو تكيفات[11].

---

(10) انظر في هذا عبد الرحمن بدوي. المنطق الصوري والرياضي ط 4/ 1977 م دار القلم بيروت ووكالة المطبوعات. الكويت. ص 267 و293.

(11) انظر أسعد رزوق موسوعة علم النفس ط 1/ 1977 م مطابع الشروق بيروت ص 38 و39.

وبذلك يكون حقاً أن مصطلح الاستغراق كما هو شامل في ذاته مستوعب في دلالته فهو أيضاً مستوعب لمعارف مختلفة كما رأينا في استعراضنا لأنواع المعارف التي صار هذا اللفظ يعبر به عن إبراز تلك الحقائق المتناولة لحدها.

(12) د. جميل صليبا ـ المعجم الفلسفي ط 1982 دار الكتاب اللبناني بيروت ص 71.